المسجد الأقصى وإحياء الأمة في سورة الإسراء

إن المتأمل في سورة الإسراء يجدها اشتملت على ثقافة قرآنية جامعة بشأن المسجد الأقصى المبارك تُمثِّل أساساً تنطلق منه الأمة لإنقاذ المسجد الأقصى ومواجهة إفساد بني إسرائيل وعدوانهم.

وتمثَّلَ في حادث الإسراء أعظم حدث مرّ بمدينة القدس منذ فجر التاريخ حين أشرقت جنباتها بالنور، وحلّ بها الضياء والبهاء بمقدم رسول الله محمد بن عبد الله - عليه أفضل الصلاة والسلام -

د. محمد الخضري

ISBN 978-993390165-3

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح

مؤسسة فلسطين للثقافة

المسجد الأقصى وإحياء الأمة في سورة الإسراء

د. محمد الخضري

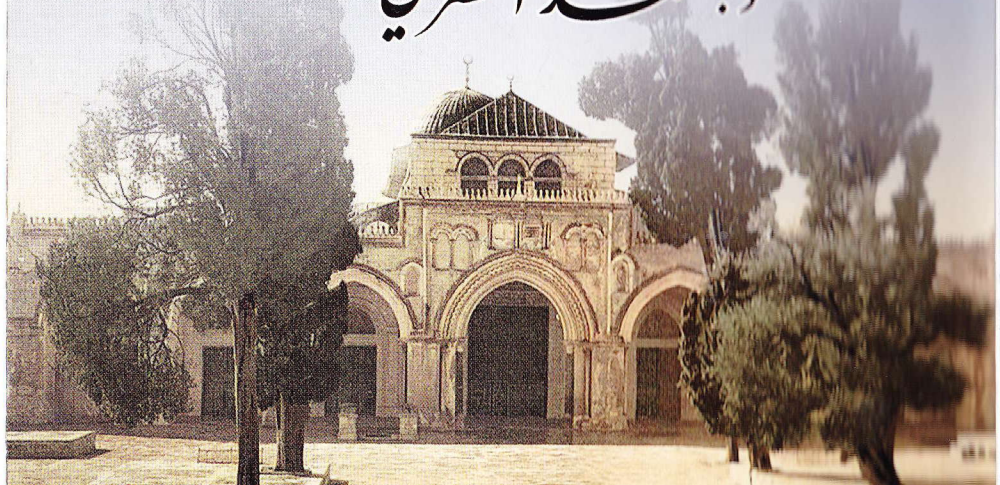

الكتاب: المسجد الأقصى وإحياء الأمة في سورة الإسراء
الكاتب: د. محمد الخضري

الطبعة الأولى - ١٤٣١هـ/٢٠١٠م

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: مؤسسة فلسطين للثقافة

سورية - دمشق - ص. ب: ١٣٠٢٩
هاتف: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٨٠٢
فاكس: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٥٥١

البريد الإلكتروني:
thaqafa@thaqafa.org

موقع المؤسسة على الإنترنت:
www.thaqafa.org

تصميم الغلاف والإخراج:
م. جمال الأبطح

سلسلة الثقافة القرآنية

الكتاب الثالث ٣

المسجد الأقصى وإحياء الأمة في سورة الإسراء

د. محمد الخضري

الفهرس

إهداء ٧

مقدمة ٩

سورة الإسراء ١٢

الفصل الأول: الإسراء والمعراج وسيرة بني إسرائيل ١٩

- حادثة الإسراء ودلالاتها ..... الآية (١) ٢٠
- شريعة موسى - عليه السلام - ..... الآيات (٢-٣) ٢١
- إفساد بني إسرائيل في الأرض ..... الآية (٤) ٢١
- الإفساد الأول ..... الآية (٥) ٢٢
- عودة بني إسرائيل إلى بيت المقدس ..... الآية (٦) ٢٣
- الإفساد الثاني ..... الآية (٧) ٢٤
- نهاية ملك بني إسرائيل ..... الآية (٨) ٢٥
- هداية الآيات (١ - ٨) ٢٦

الفصل الثاني: الهداية والعصمة بالقرآن ٢٧

- الآية ٩ ..... ٢٧
- الآية ١٠ ..... ٢٨
- الآية ١١ ..... ٢٨

الفصل الثالث: نواميس كونية وسنن إيمانية ٢٩

- النواميس الكونية ..... الآيات (١٢-١٣-١٤) ٢٩
- السنن الربانية ..... الآيات (١٥-١٦-١٤) ٣٠
- الآيات (١٨-١٩-٢٠-٢١) ٣١
- الآية ٢٢ ..... ٣٢

الفصل الرابع: المناعة الاجتماعية ٣٣
- الآيات (٢٣-٢٤-٢٥) ٣٣
- الآيات (٢٦-٣٣) ٣٤
- الآيات (٣٤-٣٥) ٣٥
- الآيات (٣٦-٣٧-٣٨) ٣٦
- الآية (٣٩) ٣٧

الفصل الخامس: أسباب الضلال ونهج الدعوة إلى الله ٣٨
- بيان تهافت عقيدة الشريك والولد ..... الآيات (٤٠-٤٤) ٣٩
- عاقبة الإعراض عن القرآن الكريم ..... الآيات (٤٥-٤٨) ٤٠
- عاقبة إنكار البعث ..... الآيات (٤٩-٥٢) ٤١
- نهج الدعوة إلى الله ..... الآيات (٥٣-٦٠) ٤٢

الفصل السادس: المناعة الإيمانية ٤٥
- الوقاية من عداوة إبليس وغوايته ..... الآيات (٦١-٦٥) ٤٥
- استشعار قدرة الله ورحمته بالعباد ..... الآيات (٦٦-٧٢) ٤٧
- الوقاية من الفتنة والاستفزاز ..... الآيات (٧٣-٧٧) ٤٨

الفصل السابع: جهاد العبادة والهداية بالقرآن ٥٠
- الصلاة والتهجد بالقرآن ..... الآيات (٧٨-٨١) ٥١
- الروح والقرآن ..... الآيات (٨٢-٨٧) ٥٢
- الاستكبار والتنطع في طلب المعجزات ..... الآيات (٨٨-٩٩) ٥٤
- استكبار فرعون وإفساد بني إسرائيل في الأرض (١٠٠-١٠٤) ٥٦
- جهاد العبادة ..... الآيات (١٠٥-١١١) ٥٧

إهداء

أهدي هذه التأملات إلى أبناء أمتنا المرابطين في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، وإلى العاملين بإخلاص من أجل تحرير بيت المقدس.

وأهديها إلى كل من يعيش المسجد الأقصى في وجدانه، ويعيش فيه هاجس القيام بواجب النصرة من أجل عودة المسجد الأقصى عزيزاً شامخاً ويعمل من أجل مواجهة إفساد بني إسرائيل في الأرض.

مقدمة

يمثل الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية مناسبة كريمة تتناسب مع جلال مدينة القدس وتاريخها المجيد، ويكمل هذا المشهد الثقافي ويزداد بهاءً باستحضار الثقافة القرآنية التي تمثلت على أكمل وجه في سورة الإسراء التي افتتحت بقوله - تعالى -:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا . . .﴾ الآية، (الإسراء١)

والمتأمل في سورة الإسراء يجدها اشتملت على ثقافة قرآنية جامعة بشأن المسجد الأقصى المبارك تمثل أساساً تنطلق الأمة منه لإنقاذ المسجد الأقصى ومواجهة إفساد بني إسرائيل وعدوانهم.

وتمثّل في حادث الإسراء أعظم حدث مرّ بمدينة القدس منذ فجر التاريخ متمثلاً في حادثة الإسراء حين أشرقت جنباتها بالنور، وحلّ بها الضياء والبهاء بمقدم رسول الله محمد بن عبد الله - عليه أفضل الصلاة والسلام - .

ولقد تأكد بالإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ارتباطهما الوثيق وتماثل قدسيتهما إلى يوم القيامة، كما تمثّل بصلاته - صلى الله عليه وسلم - إماماً بالأنبياء جميعاً وحدةُ شرائع التوحيد، وانتقال الولاية على المسجد الأقصى المبارك من بني إسرائيل إلى المسلمين، وكان في عروج النبي - صلى الله عليه وسلم - منها إلى سدرة المنتهى أعظم تكريم للإنسان منذ سجد الملائكةُ جميعاً لآدم - عليه السلام - .

تشير الآيات بعد ذلك إلى شريعة موسى - عليه السلام - وأنه باتِّباعها كان التكريم لبني إسرائيل والوعد بالأرض المقدسة والولاية على بيت المقدس، فلما انحرفوا عن شريعة موسى أصبح ديدنهم الإفساد وجاءت الإشارة في الآيات التالية إلى إفساد لبني إسرائيل مرتين في الأرض ، ويومئ السياق القرآني والسياق التاريخي لسيرة بني إسرائيل أنهما إفسادان متعلقان بالمسلمين، إذ كان لبني إسرائيل إفساد أول ضد الإسلام في عهد الرسول الكريم حين تحالفوا مع قريش في غزوة الأحزاب، وها هم المسلمون يعيشون مرحلة إفساد ثان ضد المسجد الأقصى المبارك تُنتهك فيه حرمته ويعمل بنو إسرائيل بشكل حثيث على إزالته، وهو إفساد مرتكز إلى عقيدة بني إسرائيل الفاسدة وأنه يرتكز إلى العقيدة والدين، والمتأمل في الآيات المتعلقة بذلك الإفساد يجد فيها بيانًا بشأن طبيعة هذا الصراع والتدافع، وأنه محكوم بالإرادة الربانية في سياق من التناغم بين القدرة الإلهية وإرادة الإنسان على قاعدة أن الله غالب على أمره، وأنه يسلط عباده الصالحين على المفسدين.

والمتأمل في الآيات التي أعقبت ذلك البيان بشأن التدافع بين الخير والشر، نجدها تشتمل على ثقافة قرآنية يتحقق من خلال إدراكها والالتزام بما ورد فيها من مفاهيم وتوجيهات مناعة إيمانية واجتماعية، وعصمة من غواية الشيطان، وحماية من دركات الضلال وأيضاً من الفتنة والاستفزاز والاستدراج الذي يمارسه المفسدون من بني إسرائيل في هذا الزمان وكل زمان.

ويكتمل منهج التأهيل الوارد في هذه السورة بالتوجيهات الربَّانية بالصلاة ليلا ونهارًا، وأيضًا التكليف بالتهَجُّد بالقرآن الكريم وبالخشوع والدعاء أن يجعل الله للمسلمين سلطاناً نَصيراً .

والمتأمل في سورة الإسراء يجد فيها أمراً تفردت به من بين جميع السور ، وهو أن كلمة القرآن تكررت نحو إحدى عشرة مرة، وهو ما لم يقع في سورة أخرى، ليلفت الانتباه إلى أن القرآن الذي صنع الأمة الإسلامية قادر على أن يصبَّهم في قوالب السعادة والريادة من جديد.

سورة الإسراء

افتُتحت السورة بآية تشير إلى الإسراء بالنبي - صلى الله عليه وسلم - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى المبارك. وإن في قوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

سورة الإسراء ١

تأكيداً على الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وإشارة إلى الولاية عليهما لرسولنا الكريم وللمسلمين من بعده.

وبالنظر إلى أن مكان المسجد الأقصى لم يكن معموراً ولا تقام الصلاة فيه في ذلك الحين، فإنّ في تسمية المسجد إشارة إلى أنه سوف يكون مسجداً بأكمل حقيقة المساجد عند المسلمين، كما أن في التسمية إشارة إلى صلاة الأنبياء جميعاً خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتي تمثل إيماء إلى أن الإسلام جامع لما جاءت به شرائع التوحيد من عهد إبراهيم - عليه السلام - وما تفرَّع عنه من الشرائع التي كان مقرها بيت المقدس.

وجاءت الإشارة في الآيات التالية في هذه السورة إلى شريعة موسى - عليه السلام - وإلى إفساد بني إسرائيل مرتين في الأرض ليكون في ذلك بيانٌ لأسباب نهاية ولاية بني إسرائيل على المسجد الأقصى المبارك. وأن

في ذكر نبي الله نوح - عليه السلام - إشارة إلى انتهاء علاقة نوح -عليه السلام- مع ابنه حين كفر، وأن هذا الأمر ينطبق أيضاً على العلاقة بين موسى - عليه السلام - وبين بني إسرائيل بسبب شركهم وإفسادهم في الأرض.

ومن خلال الربط بين دلالات الآيات المتعلقة بإفساد بني إسرائيل الواردة في أعقاب الحديث عن الإسراء، فإن هذا السياق يوحي بأن ذلك الإفساد مرتبط بالمواجهة بين المسلمين وبني إسرائيل، خاصة وأن اجتياح ديار بني إسرائيل قد تكرر مرات عديدة من قبل أقوام عديدة قبل ظهور الإسلام، بينما اقتصر إفسادهم وعدوانهم على المسلمين مرتين، أولاهما في عهد الرسول الكريم في أثناء غزوة الأحزاب في المدينة المنورة العام الخامس للهجرة، والثانية في فلسطين عام ١٩٤٨ وما تلاها من احتلال للمسجد الأقصى المبارك عام ١٩٦٧م.

ويزداد الأمر وضوحاً حين يتأكد أن أيّاً من الأمم التي غزت بني إسرائيل كالبابليين، والأشوريين، والرومان لم يكونوا أصحاب رسالة ولا ينطبق عليهم وصف العباد المؤمنين الوارد في الآية (عباداً لنا) ولكنه ينطبق على المسلمين، وبالنظر إلى أنه لم يكن هناك ذكر للمسجد في حال الإفساد الأول الذي أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ الإسراء٥

فإنه يمكن تأويل ذلك بأن المسلمين هم الذين جاسوا خلال ديار بني إسرائيل بسبب خيانة اليهود لعهودهم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وتآمرهم مع كفار قريش في أثناء غزوة الأحزاب، الأمر الذي مثل

إفساداً عظيماً ضد الإسلام والمسلمين والذي حدث في السنة الخامسة للهجرة، ويقابله في السياق ما جاء في سورة الحشر في قوله - تعالى - :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة الحشر٢)

فيكون وصف ما حدث لليهود في أول الحشر بيانًا لما جاء في قوله - تعالى - في أول سورة الإسراء ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ ، ويومئ إلى أنَّ هناك حشرًا ثانيًا لهم وإن في قوله تعالى (هو الذي أخرج الذين كفروا .... الآية إيماءً إلى أن إخراجهم من ديارهم حول المدينة قد كان بتوجيه إلهي كما أن نهاية الإفساد الثاني سيكون بحشر ثان يخرجهم من المسجد الأقصى بإذن الله.

ومما يزيد الأمر تأكيداً على أن إفساد بني إسرائيل مرتبط بالمواجهة مع المسلمين، أنه لم تردّ الكرة لبني إسرائيل على أمة من الأمم التي غزتهم عبر تاريخهم الطويل وبالشكل الذي بيَّنَتْه الآية الكريمة إلا على المسلمين في فلسطين، وذلك في قوله - تعالى - :

﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ (سورة الإسراء ٦)

وبمقارنة حال اليهود حين ارتدت لهم الكرة على العرب المسلمين في فلسطين عام ١٩٤٨ مع ما جاء في وصفه في الآية السابقة نجده متطابقاً إلى حد بعيد، حيث صار اليهود أكثر أموالاً، كما زاد تعدادهم يوم ارتدت

لهم الكرة زيادة ملحوظة، لدرجة مكنتهم من حشد ستين ألف مقاتل مقابل عشرين ألفاً من العرب، وهو ما يشير إليه قوله تعالى (وجعلناكم أكثر نفيراً) ، وهي الكرَّة التي مثَّلت المقدمة والإرهاص للإفساد الثاني.

وفي قوله - تعالى - :

﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ (سورة الإسراء ٧)

إشارة إلى نهاية الإفساد الثاني، وأن تلك النهاية سوف تتحقق على ثلاث مراحل ، وأنها تحدث في بيت المقدس ، والمفارقة في ترتيب تلك المراحل أنه يصيب وجه بني إسرائيل السوء والإدانة في المرحلة الأولى، بينما الأصل أن يصيب وجه بني إسرائيل المهانة والذل كنتيجة نهائية بعد تدمير رموز قوتهم.

ويتمثل في هذه المفارقة العجيبة إعجاز قرآني يستحق التأمل، وهو ما بدا واضحاً في أحداث الحرب الإسرائيلية ضد قطاع غزّة سنة ٢٠٠٩ حيث أدى عدوان الجيش الإسرائيلي الوحشي على العرب المسلمين في قطاع غزة إلى إثارة استنكار عالمي وإدانة دولية شديدة لجرائم ذلك العدوان على المدنيين، وإن في قوله تعالى (ليسوءوا وجوهكم) إشارة إلى دور فاعل يقوم به المسلمون في الكشف عن الوجه القبيح للكيان الإسرائيلي، حيث أمكن لفت نظر العالم إلى تلك الجرائم بجهود فاعلة لرجال السياسة والإعلام المسلمين داخل فلسطين وخارجها، مترافقاً مع حالة من الصمود الإيماني للشعب الفلسطيني في قطاع غزة رغم شراسة العدوان التي حفَّزَت العالم إلى متابعتها والقيام باستنكارها بشكل لافت

للانتباه من حيث تطابقه مع ما أشارت إليه الآية الكريمة، حيث تظاهرت الشعوب وتداعت المنظمات الدولية لاستنكارها والتنديد بوحشيَّتها ، أما سوء الوجوه فيعني تسليط المساءة والكآبة عليهم ، فتكون بادية على وجوههم وكيانهم ، وهو أمر قد أشار إليه وزير الخارجية الإسرائيلي (ليبرمان) بأن مشكلة إسرائيل الكبرى قد أصبحت في الرأي العام العالمي، وتحوله ضدهم بسبب العدوان على قطاع غزة.

وفي قوله - تعالى - :

﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾

إشارة إلى المرحلة الثانية من مراحل التصدي لإفساد بني إسرائيل، والمتمثلة في دخول المسجد الأقصى المبارك - بإذن الله -، والتي تكون على الشكل والصفة التي دخل بها المسلمون الأوائل المسجد الأقصى المبارك أول مرة في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- حيث دخلوا المسجد الأقصى دخول عزّة وظفر بعد حصار طويل للروم في بيت المقدس حتى بلغ الجهد منهم كل مبلغ، فأعطوا المسلمين ما أرادوا منهم، وصالحوهم على أن تحقن دماؤهم وأن يخرجوا إلى أرض أخرى.

ويشار في هذا المقام إلى أن المسلمين الذين جاسوا خلال ديار بني إسرائيل في حال الإفساد الأول هم الصحابة الذين دخلوا المسجد الأقصى أول مرة في تاريخ المسلمين في السنة السادسة عشرة للهجرة، وهم الذين سبق لهم أن جاسوا خلال ديار بني إسرائيل حول المدينة المنورة بني (قريظة) وبني (النضير) و(خيبر) وغيرها من قرى اليهود.

وفي قوله تعالى (وليتبّروا ما علو تتبيرا) إشارة إلى المرحلة الثالثة

والأخيرة من نهاية الإفساد الثاني، والتي يتم فيها تدمير رموز قوة بني إسرائيل وزوال الكيان الصهيوني نهائياً وهو ما أشار إليه الحديث الصحيح (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود على نهر الأردن أنتم شرقيه وهم غربيه .. الحديث) كما تشير الآية (١٠٤) من سورة الإسراء ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ إلى قرينة متمثلة في حدوث هجرة جماعية يهودية إلى الأرض المقدسة تدل على قرب نهاية الإفساد الثاني.

وقد حدثت هذه الهجرة الجماعية في أعقاب التوقيع على اتفاق أوسلو للسلام، إذ زاد عدد المهاجرين على مليون يهودي قدم معظمهم من أوروبا الشرقية إلى فلسطين.

والمتأمل في سورة الإسراء بمجملها يجد فيها منهج هداية للمسلمين يتأهلون به لمواجهة إفساد بني إسرائيل ويمكنهم من دخول المسجد الأقصى المبارك وإنهاء وجود يهود في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، وهي تشتمل على سنن ترتقي بوعي المسلمين وإدراكهم للنواميس الكونية وإلى المستوى الذي يؤهلهم لتحقيق النصر على بني إسرائيل المعتدين، كما تشتمل السورة على توجيهات ربانية حكيمة يؤدِّي الالتزام بها إلى بناء أمة قوية متكافلة ومترابطة تكون قادرة على تحمل أعباء المواجهة مع بني إسرائيل وعدوانهم والتصدي لإفسادهم في الأرض مهما كانت شراسة العدوان وشدته أو كان كيدهم ومكرهم.

وانطلاقاً من إدراك صحيح ودقيق لحقيقة الكيان الإسرائيلي أنه يهودي يحارب المسلمين مستظلًّا بعقيدته المنحرفة، فإنه يمكن إدراك أهمية المفاهيم الإيمانية التي وردت في هذه السورة الكريمة، والتي

اشتملت على مفاهيم تحمي من إفساد بني إسرائيل ومكرهم ومحاولات بثّ الفرقة بين العرب والمسلمين وإنَّ من يتلو قوله - تعالى - (الإسراء):

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾

يجد فيها تحذيراً من الثقة بأعداء الله وهو الخطأ الذي وقع فيه بعض العرب داخل فلسطين وخارجها ممن هادنوا اليهود وركنوا إليهم، فعادوا بخفَّي حنين دون أن يتحقق لهم أي إنجاز، وعادوا بالفشل والخسران وقلة النصير والندامة وهو ما تشير إليه الآية في قوله -تعالى-:

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ (سورة هود ١١٣).

وإنَّ تكرار ذكر كلمة القرآن الكريم في سورة الإسراء أمر يلفت الانتباه إلى الأهمية البالغة لدور القرآن الكريم في إعداد المسلمين لمواجهة إفساد بني إسرائيل، وإذا علمنا أنه قد زاد عدد حفاظ القرآن الكريم في قطاع غزة زيادة كبيرة، فإنه يمكن بذلك التعرف إلى أحد أهم أسباب قدرة المسلمين المحاصرين في قطاع غزة على الصمود لأكثر من عامين، ومواجهة العدوان الوحشي الشرس بقوة وبأس وذلك ببركة إيمانهم الصادق والتزامهم بالتوجيهات الربانية الواردة في هذا القرآن العظيم.

الفصل الأول

الإسراء والمعراج وسيرة بني إسرائيل

تفتتح السورة بالإشارة إلى الحدث العظيم المتمثل في الإسراء برسولنا الكريم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى المبارك، وهي الحادثة التي يتأكد بها انتقال إمامة البشرية إلى نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وأيضًا انتقال الولاية على المسجد الأقصى من بني إسرائيل إلى المسلمين إلى يوم الدين.

ويوحي اقتران ذكر حادثة الإسراء بالإشارة إلى شريعة موسى في بداية هذه السورة بأن إفساد بني إسرائيل مرتين في الأرض إنما هو موجَّه ضد رموز الإسلام المقدسة، والمتمثلة في التآمر ضد الرسول الكريم في حال الإفساد الأول، واحتلال المسجد الأقصى وانتهاك حرمته في حال الإفساد الثاني.

حادثة الإسراء ودلالاتها

الآية (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

يؤذن الافتتاح بكلمة التسبيح بخبر عجيب يدل على عظم قدرة الله، ورفيع درجة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإن قوله - تعالى- (عبده) يمثل إضافة تشريف، وهي تلفت الانتباه إلى ما يرد لاحقاً في قوله -تعالى- (عباداً لنا) لتوحي بأنهم الصحابة رضوان الله عليهم.

وفي قوله - تعالى - (من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) إيماء إلى أن الله - تعالى - يجعل هذا الإسراء رمزًا إلى أن الإسلام جامع لما جاءت به شرائع التوحيد ، كما أن صلاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالأنبياء جميعاً، تمثل دلالة على انتقال إمامة البشرية إلى رسولنا الكريم وأمته من بعده، وأنه تم استبدال بني إسرائيل بعد أن ضلوا وانحرفوا لتكون الولاية على المسجد الأقصى المبارك للمسلمين إلى يوم الدين .

وقوله - تعالى - (الذي باركنا حوله) يشير إلى نماء الخير فيه بوفرة الثواب للمصلين فيه، وأنه وافر الأرزاق والمياه والأشجار.

شريعة موسى - عليه السلام -

الآيتان (٢،٣)

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

يأتي ترتيب هاتين الآيتين بعد آية الإسراء ليشير إلى ارتباط الولاية على المسجد الأقصى بالولاء لله وحده، ولِتُبَيِّن سبب انتقال الولاية على المسجد الأقصى من بني إسرائيل إلى المسلمين ، وأنه كان بسبب انحراف بني إسرائيل عن شريعة موسى - عليه السلام -

وتأتي الإشارة إلى نبي الله نوح - عليه السلام - في هذه الآية للتذكير بأنَّ النسب لا يشفَع لمن كفر؛ حيث لم يشفع نوح - وهو العبد الشكور - لابنه الذي أصرَّ على كفره، وكذلك الحال بالنسبة لبني إسرائيل ؛ لا يشفع لهم نسبهم ولا صلتهم بنبي الله موسى - عليه السلام - حين اتَّخذوا من دون الله وكيلا.

إفساد بني إسرائيل في الأرض

الآية (٤)

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾

تشير الآية إلى القضاء في الكتاب الأزلي بشأن إفساد بني إسرائيل مرتين وعلوّهم علوّاً كبيراً.

ويوحي السياق القرآنيّ والسياق التاريخي لسيرة بني إسرائيل أن إفسادهم يكون ضد الرموز الإسلامية المقدسة، حيث كان الإفساد الأول ضد الرسول الكريم وصحابته في غزوة الأحزاب بالمدينة المنورة، ويكون الإفساد الثاني موجّهاً ضد المسجد الأقصى المبارك والذي جرى احتلاله عام ١٩٦٧.

وأما الكرّة التي تحققت لبني إسرائيل على العرب في فلسطين عام ١٩٤٨ فلم يطلق عليها وصف الإفساد ، لأنها لم تكن موجهة لرمز إسلامي مقدس، بل كانت ضد عرب تحالفوا مع الغرب الصليبي متمثلاً في بريطانيا وفرنسا، وساهموا في إسقاط الخلافة العثمانية الإسلامية في أثناء الحرب العالمية الأولى، وهكذا ارتدت الكرّة لليهود على العرب بعد أن تخلّوا عن مواجهة اليهود تحت راية الإسلام.

الإفساد الأول

الآية (٥)

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

تشير الآية إلى إفساد عظيم يقوم به بنو إسرائيل ضد الرسول - صلى الله عليه وسلم - رغم علمهم بمكانته العظيمة عند ربه وأنّ العدوان عليه يمثل علُوًّا كبيرا على الحق المنزل من السماء، وأنه بسبب ذلك الإفساد يبعث الله عليهم عباداً له فيجوسون خلال ديارهم، ويدخلونها دخول مساءة ومضرة لبني إسرائيل، والجَوْس يعني تكرار ذلك مرات عديدة، مع الشِّدَّة والسطوة والبأس الذي يؤدّي إلى زوال سلطانهم وهو أمر يكاد

ينطبق على ما حدث لبني قريظة وديار اليهود وقراهم الأخرى في المدينة المنورة وحولها بعد أن تآمروا مع قريش للقضاء على الإسلام والمسلمين في غزوة الأحزاب.

وقوله - تعالى - (عباداً لنا) بأن من جاسوا خلا ديار بني إسرائيل هم عباد ينسبهم رب العزة إلى نفسه وهو وصف لا يستحقه من بين من غزوا ديار بني إسرائيل إلا المسلمون الأوائل، إلى جانب عدم ذكر المسجد الأقصى في هذا الإفساد يمثلان قرينتَين موحيتين بأن الإفساد الأول لم يكن في بيت المقدس وأنه كان في المدينة المنورة.

عودة بني إسرائيل إلى بيت المقدس

الآية (٦)

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

تشير الآية الكريمة إلى وعد لبني إسرائيل بأنَّ الكَرَّة تُرَدُّ لهم على القوم الذين جاسوا خلال ديارهم في حال الإفساد الأول، وقوله (ثم) يشير إلى أن ذلك الأمر يحدث بعد فترة طويلة، أي أن الكرة ترد على أحفاد من جاسوا خلال ديارهم، كما تخبر الآية بأن بني إسرائيل يكونون أكثر أموالاً وأولاداً وأكثر عدداً وعدّة للحرب، أي أكثر نفيراً، وأنه يتحقق لهم النصر والغلبة.

ومن خلال التأمل في السياق التاريخي لسيرة بني إسرائيل نجد أنه لم تُرَدَّ لهم الكرَّة والغلبة على أي أمة من الأمم التي غزت ديارهم قبل ظهور الإسلام سواء البابليين أو الآشوريين أو الرومان أو اليونان أو حتى الألمان

في العصر الحديث، بل إنّ الكرَّة قد ارتدت لبني إسرائيل في فلسطين على أحفاد العرب المسلمين الأوائل الذين جاسوا خلال ديارهم في المدينة وحولها في عهد الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم- .

وبالنظر إلى حال اليهود حين حاربوا العرب في فلسطين لإقامة دولتهم عام ١٩٤٨ نجد أن الوصف الوارد في الآية منطبق تماماً على واقع اليهود من ناحية زيادة أموالهم لدرجة كبيرة جدا، كما زاد عددهم لدرجة أنهم حشدوا ستين ألف مقاتل مقابل عشرين ألفاً فقط من العرب في تلك الحرب، واصطفَّ العالم معهم تأييدًا لهم لإقامة دولتهم.

الإفساد الثاني

الآية (٧)

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾

تخاطب الآية بني إسرائيل وتخبرهم أنه يصلح حالهم إنْ أحسنوا ولم يفسدوا، وتحذرهم من العدوان والإفساد في الأرض فتنقلب أحوالهم.

ويومئ السياق في هذه الآية إلى أنَّ بني إسرائيل يفسدون بعدوانهم على المسجد الأقصى وأنَّه حينئذٍ يسلط عليهم أحفاد القوم الذين جاسوا خلال ديارهم أول مرة، ويشير السياق القرآني والتاريخي إلى أن هؤلاء هم أحفاد المسلمين الأوائل؛ ذلك لأن قوله - تعالى - (ليسوءوا وجوهكم) معطوف على الذين جاسوا خلال ديارهم في الإفساد الأول، كما يومئ إلى أنَّ هؤلاء الأحفاد عبادٌ صالحون، وأنهم أولو بأسٍ شديد، حيث الوصف

القرآني لهم وكأنهم هم أنفسهم الذين جاسوا خلال ديار بني إسرائيل أول مرة، يرفعون راية الإسلام ويقاتلون من أجل مواجهة إفساد بني إسرائيل وعدوانهم على المقدسات.

والمتأمل في هذه الآية يجدها تشير إلى أن نهاية الإفساد الثاني تكون على ثلاث مراحل فيعتري السوءُ وجوهَ بني إسرائيل في المرحلة الأولى بسبب إجرامهم واستكبار العالم لعدوانهم وهو الأمر الذي تحقق في أعقاب الحرب على العرب المسلمين في قطاع غزة (٢٠٠٨- ٢٠٠٩). حين واجهوا اليهود تحت راية إسلامية فصمدوا في مواجهتهم وكشفوا جرائمهم، ثم يكون دخول المسجد الأقصى بعد ذلك دخول قوة وعزة في مرحلة تالية وبشكل يشابه دخول المسلمين بيت المقدس أول مرة في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أما المرحلة الثالثة والأخيرة فتكون حرباً يتم خلالها تدمير قوة بني إسرائيل ونهاية ملكهم.

نهاية مُلك بني إسرائيل

الآية (٨)

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

في هذه الآية وعد ربّاني لليهود بأنَّه تحيط بهم الرحمة بعد هزيمتهم وزوال ملكهم. ويمكن استشراف طبيعة تلك الرحمة من خلال النظر في قوله تعالى في سورة الحشر:

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾

(الحشر الآية ٢)

وفي قوله - تعالى -:

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ﴾

(الحشر الآية ٣)

أي أنَّ الرحمة تتحقق لهم بالجلاء عن بيت المقدس بعد أن يزول ملكهم مع نهاية مرحلة الإفساد الثاني، و يدخلوا في حالة تشبه حالتهم في حال الإفساد الأوَّل، وكأنَّ جلاء اليهود عن فلسطين يكون رحمة من الله وإنقاذاً لهم من حال حشر ثانٍ يصيبهم في عقب إفسادهم ببيت المقدس.

هداية الآيات ١-٨

١- ارتباط المسجد الأقصى المبارك بالمسجد الحرام وولاية المسلمين عليهما إلى يوم الدين.

٢- الإخبار عن إفسادين لبني إسرائيل ومواجهات كبرى، يشير السياق القرآني والتاريخي إلى أنها تحدث بين المسلمين واليهود.

٣- تأويل الإفسادين على الأرجح أنهما عدوانان على رموز إسلامية مقدسة، يكون أولاهما في المدينة المنورة والثاني في بيت المقدس.

٤- أنه تُرَدُّ الكرّة لليهود على العرب بعد الإفساد الأول وأن مُلك بني إسرائيل يزول دون أن ترد لهم كرّة بعد الإفساد الثاني.

الفصل الثاني

الهداية والعصمة بالقرآن

الآيات (٩ - ١١)

يأتي التأكيد في هذه الآيات على أنَّ الهداية بالقرآن والإيمان بالآخرة تعصم الإنسان من قصور في طبيعته البشرية تبقيه عاجزاً عن التمييز بين الخير والشر إنْ لم يكن القرآن هادياً، والخوف من الله يوم القيامة رادعاً.

ورغم أن حاجة المؤمنين لإدراك هذه المفاهيم الإيمانية بدهيَّةٌ، إلا أن حاجة من يواجه إفساد بني إسرائيل ودهاءهم ومكرهم وتآمرهم، تكون أكبر لهذه المعاني، وهو الأمر الذي يشير إلى أهمية تأهيل الأمة التي تواجه إفساد بني إسرائيل في الأرض بهدي القرآن الكريم.

الآية (٩)

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

تقرر الآية الكريمة أن القرآن الكريم يهدي هداية مطلقة تشمل أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، فهو يهدي للتي هي أقوم في

عالم الضمير وأيضاً على مستوى العقيدة التي تطلق الطاقات البشرية الصالحة، وتعصم من نوازع النفس العجولة الجهولة التي لا تكاد تُمَيِّزُ بين الخير والشر حين تعصف بها نوازع الهوى وجموحها.

الآية (١٠)

﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

يأتي التذكير بالآخرة في سياق الإشارة إلى طبيعة الإنسان العجولة، لتلفت الانتباه إلى أهمية الإيمان بالبعث والحساب يوم القيامة في كبح جماح النفس العجولة، وعصمة المؤمنين من الزلل، وذلك لأن الإنسان متسرّع بحكم طبيعته وجِبلَّته في طلب ما يخطر بباله من غير أن يتأنّى تأنّيَ المبصر الذي يوقع الشيء في موقعه إذا علم أنه محاسب على فعله.

الآية (١١)

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

تشير الآية الكريمة إلى طبيعة الإنسان الجهولة التي تحتاج إلى هداية القرآن والإيمان بالبعث والحساب لكي يستقيم أمرها وينضبط مسارها في هذه الحياة الدنيا.

وإن فيها تحذيراً من هذه الطبيعة البشرية وقابليّتها للانفلات إذا لم يكن لها من القرآن هداية، وفي الخوف من الحساب يوم القيامة عصمة ووقاية.

الفصل الثالث

نواميس كونية وسنن إيمانية

الآيات (١٢ - ٢٢)

تشير الآيات التالية إلى أهمية الالتفات إلى الآيات الكونية التي تمثلت في آيتي الليل والنهار مقترنة بالإشارة إلى سنن العطاء الإلهي للبشر في هذه الحياة الدنيا إلى جانب ذكر سنن العمل والجزاء والكسب والحساب، ليستقر في وجدان المؤمن وعيٌ سُنَنِي، ويقين بأنَّ الكون محكوم بنواميس لا تحابي، لتشكل بذلك ثقافة سنِّيَّة يتأهل المسلمون بها لمواجهة طغيان بني إسرائيل وجبروتهم وافسادهم في الأرض.

النواميس الكونية

الآيات (١٢-١٣-١٤)

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

يتبدّى من خلال التأمل في تعاقب الليل والنهار ذلك الناموس الذي يحكم هذا النظام الكوني الدقيق الذي يرتبط به سعي الناس وكسبهم، كما يترتب عليه الحساب والجزاء يوم القيامة، وأما طائر الإنسان فهو كناية عن عمله بالليل والنهار، وأما وصفه بالطائر فهو تصوير بديع يشبه السعي بالطيران، والزامه في عنق الإنسان كناية عن المسؤولية تجاه ذلك السعي وما ترتب عليه من خير أو شر.

أما الإشارة إلى كتاب الأعمال المنشور يوم القيامة ففيه بيان عن دقته ووضوح تفاصيله، وذلك من أجل أن يعمق في نفس الإنسان إحساسه بالمسؤولية تجاه ما يقوم به من أعمال، ليتحقق بذلك ترابط وثيق بين النواميس الكونية والسنن الإيمانية وأنها محكومة بإرادة الخالق- سبحانه وتعالى- .

السنن الربانية

الآيات (١٥-١٦-١٧)

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

يقترن في هذه الآيات بيان بشأن المسؤولية الفردية تجاه اختيار طريق الهداية بالمسؤولية الجماعية تجاه ما يصيب الأمم من هلاك وتدمير؛ فالفرد مسؤول عما اكتسب ولا أحد يحمل وزراً عن أحد، وأما الأمم

فمسؤوليتها عامة، ويحمل الوزر الأكبر رؤساؤها المترفون حين يتوقف أو يُوقف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتجرى عليها السنن الربانية، فيصيبها الهلاك كما أصاب أمثالها من الأمم السالفة.

بهذا نتكرّس في وعي المؤمنين علاقة وثيقة بين المسؤولية الفردية والمسؤولية الجماعية تجاه الإفساد والمفسدين، إذ إنّ الأمة التي لا تقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّه يتعاظم فيها الفساد ، وتكثر فيها العلل ، فتسري عليها السنن.

الآيات (١٨- ١٩- ٢٠ - ٢١)

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾

يأتي التأكيد في هذه الآيات على أن العطاء الإلهي غير محظور على أحد، سواء المؤمن أو الكافر منهم، فأما من كفر فيستمتع بعطاء ربه كما تستمتع الأنعام ثم يكون مصيره إلى النار.

وأما من كانت غايته مرضاة ربه، فترتقي تطلُّعاته وتتسامى؛ لأنّه يدرك أنّ العطاءَ في الدنيا هو عطاء لمن آمن وأيضًا لمن كفر، وأنّ النفس التوّاقة إلى العلا إنّما تتطلّع إلى العطاء الأعظم في الآخرة، وهمّها أن يوصلها عملها إلى الفردوس الأعلى.

وحين تستقر هذه المعاني الإيمانية في النفس، ويتعرف المؤمن إلى هذه السنن الإلهية فسوف يتحقق له التحرر الوجداني من الخوف على الرزق والخشية من الإنفاق في سبيل الله كما تتحقق له مناعة راسخة ضد الإغراء بالمال من قبل المفسدين المترفين ليصبح المؤمن مؤهلاً لمواجهة إفساد بني إسرائيل في الأرض.

الآية (٢٢)

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾

يأتي النهي الرباني عن الشرك في سياق ما أشارت إليه الآيات السابقة من التأكيد على أنّ الرّزق بيد الله وأن العطاء في الدنيا هو من عند الله وحده، وإنَّ في هذا تحذيرًا لمن يشرك بالله أنه يصبح مذموماً عند ربه كحال المسرف الذي يصبح مخذولاً في حال فقره.

ويتبيَّن بهذا مدى ارتباط العمل بالجزاء، وكذلك الكسب والحساب والرزق والعطاء بالناموس الذي يصرف الليل والنهار، لتتحقق بذلك ثقافة سننية يتأهل بها المؤمن في جميع أحواله، ليصبح قادراً على مواجهة التحديات، وامتلاك المناعة ضد الفساد.

الفصل الرابع

المناعة الاجتماعية

الآيات (٢٣-٣٩)

تشتمل هذه المجموعة من الآيات على توجيهات ربانية تتمثل فيها سنن اجتماعية تستقر بها المجتمعات الصالحة وتتقدم.

وإنّ مجتمعًا تسوده الألفة والتراحم على مستوى الأسرة والتكافل على مستوى المجتمع هو جدير أنْ يتحقق فيه الأمان على النفس والأموال والأعراض، وأهلٌ لأن يحمل رسالة السماء ويتحمل أعباءها.

وتأتي هذه التوجيهات في سياق تأهيل الأمة لمواجهة إفساد بني إسرائيل في الأرض، لأنّ الاستقرار والمنعة إنما تتحقق لها حين تلتزم الأمة بهذه السنن، لتصبح مؤهلة لمواجهة العدوان والإفساد بكفاءة واقتدار.

الآيات (٢٣-٢٤-٢٥)

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ

أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

يأتي التوجيه الرباني في صورة قضاء حتمي يوجب على الأبناء رعاية الآباء برحمة ورأفة ولطف وتذلل، وأنَّ في طلب الرحمة للوالدين إشارة إلى أنه لا قدرة لأحد على مكافأة الوالدين إلا الله، لذا أوجب الله على الأبناء أن يطلبوا لهم الرحمة من الله - جلّ وعلا - وهو سلوك تتحقق من خلاله مناعة اجتماعية وحماية للأمة من التفكك والضعف، لارتباط ذلك بالعقيدة وأنَّه شرط لكمال الإيمان.

الآيات (٢٦- ٣٣)

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ

مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

يجعل القرآن لذي القربى وابن السبيل حقاً في أعناق القادرين على الإنفاق، كما يوصي باللطف معهم من أجل أن تكون العلاقة بين أبناء المجتمع علاقة تكافل ومودة، كما تدعو الآيات إلى تجنب التبذير والبذخ الذي يثير الحسد ويفسد العلاقة بين الناس. وانطلاقاً من اليقين بأن الرزق بيد الله، يأتي التحذير من قتل الأولاد خوفاً من الفقر، كما يأتي تحريم الزنا حفاظاً على الأعراض وعلى الثقة بين أبناء المجتمع وصرفهم عن كل ما يؤدّي إلى ضعف المجتمع، بسبب تفشّي الريبة المؤدية إلى الخصومة بين الناس. وفي سياق المحافظة على لحمة الأمة ولجم شهوة الثأر بين الناس يأتي التوجيه الرباني بأن يجعل حق تنفيذ حد القتل ضد القاتل بيد ولي الدم، وأنه يكفيه أنَّ الشَّرع ينصره على القاتل فلا يلجأ إلى أخذ الثأر بنفسه.

الآيات (٣٤- ٣٥)

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

يأتي التوجيه الرباني بوجوب المحافظة على مال اليتيم مقترناً بوجوب الوفاء بالعهود لتتكرس بذلك أهمية رعاية اليتيم والمحافظة على ماله،

ذلك لأن إضاعة مال اليتيم تُهَدِّدُ مستقبله وتثير قلق المجاهدين على أبنائهم من بعدهم، بينما يؤدي الاهتمام باليتيم إلى الاطمئنان على أبنائهم من بعدهم كما أن اليتيم الذي يتلقى رعاية في طفولته ويجد ماله محفوظاً حين يبلغ رشده، لن يكون إلا وفياً لكافله ولأمته.

ويتأكد هذا التوجيه الرباني للأمة المسلمة التي يكثر فيها الشهداء ويتزايد عدد الأيتام لتكون أكثر قدرة على التصدي لإفساد بني إسرائيل حين يتصاعد عدوانهم.

الآيات (٣٦ - ٣٧ - ٣٨)

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

في الآيات بيان ربَّاني بشأن مسؤولية المؤمن تجاه ما يدور في نفسه تجاه الآخرين من وساوس وظنون واتّهامات بغير دليل، وأنه بما وهب الإنسان من سمع وبصر وإدراك يصبح مسؤولا عن مواقفه.

وتشير الآية التالية إلى علة أخرى تتمثل في الكبر الذي يصيب الإنسان حين يغفل عن جوانب القصور لديه بالنسبة لقدرة الله وعظمته، فيدعوه المولى إلى مقارنة نفسه بالجبال التي هي من خلق الله -سبحانه وتعالى-، وأنَّه لو استمع إلى القرآن وأعملَ عقله، وتحسَّس حقيقة مشاعره تُجاه عظمة الخالق لخشع وخضع، ولابتَعَدَ عن كل ما هو سيء ومكروه من تلك

المعاصي والانحرافات.

وتُوازِ لخطورة المسؤولية تجاه ما يَسمع المؤمن ويرى، وما يختلج في نفسه من مشاعر فإن الآية الكريمة تشير إلى خطورة غفلة القلب عن عظمة الخالق وقدرته، الأمر الذي يؤدي إلى الغرور الذي هو عِلَّة نفسية تفسد القلب وتؤدي إلى إثارة العداوة والفرقة بين الناس مما يضعف قدرة الأمة على مواجهة أعدائها.

الآية (٣٩)

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

تُرتِّب الآية الكريمة في تلك الحكم الربانية التي لا يكاد ينتفع بها المشركون؛ لأن من مقتضيات القدرة على الانتفاع بها أن يكون الإنسان مؤمناً بربه ومؤمناً بالجزاء الحسن على ما بذل من مال أو جهد في سبيل الله . وبموازاة ذلك يأتي تحذير من الشرك لأنه يمثل نقيضاً للحكمة ويغضب الرب ويحرم من الأجر والثواب إلى جانب أنه يصرف المشرك عن المبادرة إلى أعمال الخير.

الفصل الخامس

أسباب الضلال
ونهج الدعوة إلى الله

الآيات (٤٠-٦٠)

تشير الآيات إلى أسباب الضلال ووقاية للمسلمين منها، والتي تمثلت في عقيدة الشريك والولد، وأيضاً الإعراض عن القرآن الكريم وإنكار البعث، والجزاء والحساب يوم القيامة.

وفي سياق المواجهات الكبرى بين المسلمين وبني إسرائيل يصبح تصحيح العقيدة عنصراً مهما من عناصر تأهيل المسلمين لمواجهة إفساد بني إسرائيل وعدوانهم على المقدسات الإسلامية، ذلك أن اليهود يحاربون المسلمين تحت راية عقيدتهم المنحرفة، ولا بد من مواجهتهم تحت راية إسلامية وبعقيدة صحيحة.

وقد بينت الآيات تهافت عقيدة الشريك والولد كما بينت أسباب الإعراض عن القرآن الكريم وحذرت منها، وفنّدت أيضاً حجة المشركين في إنكار البعث بعد الموت ليتبين بذلك مدى الترابط بين الإيمان باليوم الآخر وبين الوقاية من الإعراض عن القرآن الكريم.

وتشير الآيات بعد ذلك إلى وجوب الدعوة إلى الله بالحسنى وأنها سبب في تفضيل نبي الله داود - عليه السلام - .

بيان تهافت
عقيدة الشريك والولد

الآيات (٤٠- ٤٤)

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ ۚ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

في الآيات بيان بشأن عقيدة الشريك الفاسدة وتهافتها أمام المنطق القرآني الكريم، فالمشركون الذين يكرهون البنات، يدّعون أن الملائكة بناتٌ لله، وهم بذلك ينسبون إلى الله -سبحانه وتعالى- ما لا يرضون لأنفسهم، إذ الأصل أن العبيد يؤثرون سادتهم بالأجود لا بالأدنى، وهو منطق يدحض شبهة الولد، ويشير في جانب إلى منهجية التفكير لدى المشركين.

وأما قولهم أن لله تعالى شركاء، فهو قول يدحضه المنطق والواقع، ذلك

أن الشريك لا يرضى بتبعية دائمة ومطلقة لشريكه، وهو يسعى ويجتهد في مغالبة ذي العرش مع ما يصاحب ذلك من مواجهات وخلل في نظام الكون، بينما يؤكد الواقع انتظام الكون وخضوعه للناموس الإلهي منذ الأزل، وهو ما يُشير إليه قوله - تعالى - ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ .. الآية﴾ الإسراء (٤٤)

عاقبة الإعراض عن القران الكريم

الآيات (٤٥- ٤٨)

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

تشير الآيات إلى عواقب خطيرة تصيب من يعرض عن القرآن الكريم ومن أعظمها انسداد أسباب الهداية أمامه وتعطلها لديه.

وإن أولى متطلبات الهداية بهذا القرآن أن يكون مؤمناً باليوم الآخر، لأن من لا يخشى عقابا ولا يرجو ثوابا يوم القيامة لا يجد حافزاً لسماع القرآن الكريم، ولذا يصبح وكأنَّ في أذنيه انسدادًا وعلى قلبه غطاءً فلا

يعي ما يسمع ولا يهتدي بما سمع.

وتشير الآية التالية إلى سبب آخر للنفور من الاستماع للقرآن الكريم متمثل في عدم التخلي عن عقيدة الشرك الباطلة، لأن التوحيد هو جوهر التوجيه القرآني؛ ولذلك يعرض عن القرآن كل من تمسك بالشرك. وإذا استمع هؤلاء المشركون إلى القرآن وأحسُّوا دبيب الهداية يسري في نفوسهم فإنَّهم ينكرون ذلك بدعوى أنه سحر.

عاقبة إنكار البعث

الآيات (٤٩- ٥٢)

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

يستند المنكرون للبعث يوم القيامة إلى استحالة عودة الحياة إلى أجسادهم بعد أن تصبح عظاما متفتتة.

ولو فكر هؤلاء وتأملوا في حقيقة إعجاز خلق الإنسان من العدم لعلموا أن إعادة الخلق هي أهون على الله من البداءة.

وأن الإيمان بقدرة الله المطلقة يزيل عن النفس ريبتها في إحياء الموتى، سواء أصبحوا ترابا أو تحوَّلوا حديدا أو حجارة لأنها خلق من خلقه.

ويأتي التأكيد الإلهي بعد ذلك على أن البشر جميعا سوف يُبعثون من قبورهم، يُسَبِّحون بحمد ربهم لأنه أحياهم غير مدركين أنهم لبثوا في قبورهم آمادا طويلة.

نهج الدعوة إلى الله

الآيات (٥٣- ٦٠)

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا

ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) ﴾

في الآيات توجيه ربَّاني واضح بشأن الدعوة إلى الله بالحسنى وبالموعظة الحسنة، وتحذير من الغلظة لأنها تفتح للشيطان على الناس بابا يصرفهم عن الاستماع لغلظ القول، وفيها أيضًا إعلام للدعاة بأنهم لم يُوكَّلوا في الناس يجبرونهم على الإيمان، وأنَّ لهم في رسول الله أسوةً حسنةً في هذا الشأن وأنه لو شاء الله لهدى الناس جميعاً ورحمهم، وإن يشأ يعذبهم، وأنه هو العليم بأحوال العباد جميعاً في السموات والأرض وإنه يريد للناس أن يؤمنوا بمحض إرادتهم.

ويأتي ذكر داود - عليه السلام - في هذا المقام ليلفت الانتباه إلى أن سبب تفضيله راجع إلى مزاميره وما اشتملت عليه من مواعظ وتسبحيات قد خشعت لها القلوب وأوّبت معها الجبال .

وفي سياق الدعوة إلى الله بالحسنى تشير الآيات بعد ذلك إلى توجيه رباني بشأن تقديس الأولياء والصالحين، فيبيِّن عجزهم عن الاستجابة لمن يدعونهم لكشف الضر عنهم، وأنه حريٌّ بمن يعتقد بصلاحهم أن يتقرَّب إلى الله مثلهم، وحريٌّ بهم أن يحذروا عذاب يوم القيامة إن أصرُّوا على الاستعانة بغير الله .

وفي الآيات بيان بعد ذلك بشأن القرى التي تطلب المعجزات أنه يأتيها العذاب بالاستئصال إذا لم تؤمن حين يُلبَّى طلبُها للمعجزات كما حدث

لثمود ، وأما قريش فقد جاء المنع الإلهي بعدم تلبية طلبها للمعجزات، لأن الله قدَّر عدم استئصالهم لعلمه أنه يدخل في الإسلام كثير منهم، وأنهم سيحملون رسالة القرآن الكريم إلى العالم جيلا بعد جيل، ولكنه أجرى العذاب بالقتل والذل على المشركين منهم ممن أصرُّوا على كفرهم وعدوانهم.

ثم أشارت الآية إلى إحاطة الله بالناس إحاطة علم وقدرة، وأنه - سبحانه وتعالى - جعل في حادثة الإسراء والمعراج ابتلاء للناس ليختاروا التصديق أو الإنكار، رغم قدرته عليهم، كما أشارت الآية إلى شجرة الزقوم تخويفا لهم، ليكون في هذا النهج قدوةٌ للدعاة إلى الله يُذَكِّرون الناس ثم يتركون لهم حرية الاختيار، أي أنَّ القرآن يُحَفِّز الدعاة إلى الله أن ينطلقوا في دعوتهم من الاعتراف بحق الآخرين في الاستجابة أو الإعراض وأن لا يتجاوزوا ذلك إلى درجة الإجبار، بل هناك نهي عن مُجَرَّد الغلظة في القول.

الفصل السادس

المناعة الإيمانية

الآيات (٦١ - ٧٧)

تشير الآيات الكريمة إلى مرتكزات بناء المناعة الإيمانية التي تحمي المؤمن من غواية إبليس، كما أن ذكر رحمة الله وقدرته تحمي من الجبن والهوان، والخشية من الله تحمي من الانحراف عن الحق والاستجابة لأهل الضلال، وتكتمل المناعة الإيمانية بحسن التوكل على الله وبصدق التوجه إليه وبالصلاة والتهجد بالقرآن.

الوقاية من عداوة إبليس وغوايته

الآيات (٦١-٦٥)

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً

مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم
بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا
يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ
سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

تشير الآيات إلى عصيان إبليس لربه بشأن السجود لآدم، رغم أنه أعلم الخلق بقدرة الخالق وعظمته، فاستكبر بسبب حسده لآدم واحتقاره له، متغافلاً ومتجاهلاً أهمية نفخة الخالق في الطين الذي خلق منه آدم - عليه السلام - ، وأنّه لذلك قد أصبح مفضّلاً على كثير من الخلق وأنّ في هذا تحذيرًا من الكبر والحسد ومن خطره وسوء عاقبته في الدنيا والآخرة، وتحذيرًا أيضاً من غواية إبليس للبشر.

وفي هذه القصة إعلام للناس بأن الله أذن بإرادته لإبليس لا بأمره، بأن يجمع من وسائل الفتنة ما يغوي بها ذريّة آدم وأن يُضلّهم فينفقوا الأموال في المحرمات وأن يَشْغَلهم بها وبالأولاد عن طاعة الله وعبادته، وأن يعِدَهم الوعود المغرية الخادعة، وأن يزيّن لهم الخطأ والمنكر يوهمهم أنه حسن.

وفي هذا المشهد بيان للدعاة إلى الله أنه - تعالى - ترك لإبليس أن يختار بين السجود لآدم وبين أن يتكبّر، وأذن له أن يهتدي أو أن يضل ويسعى لغواية العباد، وأذن للإنسان أن يختار بين الهداية والضلال، مع التأكيد على أنَّ لِمَن اهتدى رعاية من الله وحماية من الغواية.

استشعار قدرة الله ورحمته بالعباد

الآيات (٦٦-٧٢)

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى
ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ
ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ
أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ
فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞
وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾
يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن
كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ۞

في الآيات تذكير بأفعال الخالق العظيم الدالة على قدرته ورحمته، يسخّر البحر لمنفعة العباد، ويحفظهم حين تتعالى الأمواج، ويذكّرهم بأنهم يدعونه إذا مسّهم الضر، وأنهم يُعرضون حين يزول الخطر، ويحذّرهم ليعلموا أنهم في قبضة ربهم في كل لحظة وكل مكان.

ويَعْقُب ذلك تذكير بنعمته - تعالى - على الناس وتكريمه لهم بالعقل

والحركة ، وبِحُرِّيَّة الاختيار وتفضيلهم على كثير من الخلق، وأن أعظم التفضيل يكون يوم القيامة حين يُدعى الناس فيتَّبِع كلٌّ إمامَه في الدنيا، وحينئذ يسعد المؤمنون بقراءة كتبهم مسرورين بما يجدون فيها من حسنات، وأما من كفر في الدنيا وعمي عن اتِّباع ما نزل من الهدي هو أعمى عن الطريق إلى الجنة يوم القيامة.

الوقاية من الفتنة والاستفزاز

الآيات (٧٣-٧٧)

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

تشير الآيات إلى سنن الابتلاء بالفتنة وبالاستفزاز، وفي قوله -تعالى- (لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً) إشارة إلى ميل فطري للتوافق مع الآخرين طمعاً في تحقيق ما يبدو أنه مصلحة عليا، وأنه لا ينجو من ذلك إلا من استمسك بالحق ولم يفرِّط، كما أن فيها إشارة إلى محاولة المشركين مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يركن إليهم شيئاً قليلاً، ليجاملهم بالتنازل عن شيء من الحق، ولكنَّ الله الذي يعلم استمساك الرسول

بالحق قد ثبَّت رسوله الكريم وحفظه من مكر المشركين وغوايتهم، وهو تعالى يثبِّت عباده الصالحين حين يعلم ثباتهم على الحق وتمسُّكهم به.

تشير الآيات بعد ذلك إلى الابتلاء بالتهديد والتخويف والأذى للرسول ليخرجوه إخراجاً مذلا ، ولكن الرسول الكريم لم يخرج إلى أن أذن الله له بذلك ، ليدلل بذلك على أنه لم يخرج نتيجة لاستفزازهم بل لأن الله أمره بالهجرة، لأنه لو أُخرِج الرسولُ قهراً لأصاب قريشَ عذاب الاستئصال.

وإن في هذا توجيهًا للمؤمنين أن يصبروا على الأذى والتهديد والتخويف وأن يحذروا من غواية أعداء الله وخداعهم، وبذلك تتعزز لديهم المناعة الإيمانية التي تحمي من الابتلاء ومن الانحراف عما نزل من الحق لغواية أعداء الله وعدوهم .

الفصل السابع

جهاد العبادة والهداية بالقرآن

الآيات (٧٨ - ١١١)

وبعد جهاد الدعوة والتربية يأتي جهاد العبادة في ختام هذه السورة الكريمة، فكان التوجيه الرباني بالصلاة وبالتهجد بالقرآن ، والمتأمل في سورة الإسراء يجد فيها أمراً تفرَّدت به، وهو أن كلمة القرآن تكررت على نحو لم يقع مثله في سورة أخرى ليلفت الانتباه إلى أن القرآن يضع الأمة الإسلامية ويصبُّها في قوالب السيادة والريادة على مر العصور.

ويخبر الحق -تعالى- أنه بالحق قد أنزل القرآن ليكون منهجاً للمؤمنين، فيشفي من الضلال ومن التعنُّت والاستكبار، ومن قبل قد استكبر فرعون وتجبَّر رغم الآيات والمعجزات، وبنو إسرائيل من بعده أصابتهم آفة الاستكبار شأنهم شأن فرعون وشأن المشركين عامَّةً يفسدون في كل عصر، وتشير الآية إلى أن وسيلة ذلك تكون باتِّباع الحق الذي نزل به القرآن.

إنَّ استقبال القلوب المؤمنة لنفحات القرآن الكريم والصلاة والتهجد بالقرآن لأنه يجعل هذه القلوب تعلو على الضعف والهوان، لأنَّ القرآن يشحذها بالعزيمة ويقيها الذل والهوان، وحين يكون شعارها التكبير يتنزل النصر بإذن الله وإن عزّ النصير.

الصلاة والتهجّد بالقرآن

الآيات (٧٨-٨١)

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾ ﴾

يأتي التوجيه الرباني بإقامة الصلاة والتهجد بالقرآن ، مع التأكيد على صلاة الفجر لأنها صلاة تدل على قوة الإيمان، كما تتعزز بها صلة المؤمن بخالقه وتؤدي إلى حسن التوكل عليه، وأنه بالتهجُّد في الليل يبلغ المؤمن عند الله أرفع منزلة.

ويخبر الحق تعالى أنه بالتهجد وبالقرآن يبلغ الرسول- صلى الله عليه وسلم - المقام المحمود المقدَّر له عند ربه ، ويأتي التوجيه بعد ذلك للرسول الكريم- صلى الله عليه وسلم- وهو لكل مؤمن أيضاً بأن تكون الهجرة خالصة لله - تعالى - وأن يكون مقصده دوماً مرضاة ربه وألا يخالط ذلك المقصد هوًى أو ظلمٌ لأحد، وأنه بذلك تكتمل المناعة الإيمانية ويكمل الإيمان.

وحين تحقق النصر للرسول الكريم بفتح مكة جاء التوجيه الرباني بأن تكون كلمة الحق هي الشعار المرفوع فوق رايات النصر لأن انتصار الحق يعني زوال الباطل.

الروح والقرآن

الآيات (٨٢- ٨٧)

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

تشير الآيات إلى طبيعة لدى الإنسان وجِبِلَّة فيه تتمثل في أنه يعرض عن الهداية غفلةً أو تكبراً في حال اليسر، كما أنه شديد اليأس حين يصيبه البلاء وتحيط به المصائب والشرور، ومن يتلو القرآن ويهتدي بهداه يجد فيه شفاءً من آفة الكبر وعلّة الغفلة، كما يجد رحمة ربه تحيط به وتحميه من اليأس ومن آفة الكبر والغرور، وإنَّ عاقبة الإنسان في الآخرة إنما تكون بحسب عمله في الدنيا واختياره.

ويأتي السؤال عن الروح في سياق الحديث عن القرآن الكريم ليشير إلى التشابه بينهما من ناحية الخفاء والإعجاز، وأنهما من أمر الله، ولا يعلم سر إعجازهما إلا الله.

وكما أن الروح هي سر الحياة للأجساد فإن القرآن الكريم هو سر الحياة والهداية للنفوس وقوله تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) يعني مطلق العلم الذي اختصَّه الباري لنفسه ولا يعلمه أحد سواه.

وفي قوله - تعالى - (يسألونك عن الروح) إشارة إلى سؤال سأله المشركون عن الروح بإيعاز من يهود المدينة، ويأتي الحديث عنها في سياق الحديث عن القرآن الكريم لبيان التشابه بينهما، وإنه يتناسب مع الحديث عن الروح في سورة الإسراء لأن حادثة الإسراء والمعراج هي أيضاً من أبطن سر الملكوت، لا سيما بما علا به من المعراج لغرابته كالرؤيا، كما جاء في قوله - تعالى - في هذه السورة (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك).

ويلاحَظ أن الجواب عن السؤالين الآخرين الذين سأل عنهما المشركون بإيعاز من قريش والمتعلقين بقصة (أصحاب الكهف) وقصة (ذي القرنين) لم يأت ذكرهما في سورة الإسراء، بل وردا في سورة الكهف لأنه من عالَم الملك وليس من عالَم الروح من ناحية، كما أنَّهما أيضاً متعلقان بموضوع الدعاة إلى الله، والذي جاء البيان بشأنه في كتاب (منهج تأهيل الدعاة إلى الله في سورة الكهف).

وكما أن الله قادر على نزع الروح من الجسد فإنه - تعالى - قادر على إذهاب القرآن من الصدور والسطور، ولكنه - سبحانه وتعالى - سيبقي هذا القرآن إلى قرب يوم القيامة رحمة للرسول - صلى الله عليه وسلم - وللناس، وهي نعمة من الله وفضل تستدعي الشكر لله والثناء عليه.

الاستكبار والتنطع
في طلب المعجزات
الآيات (٨٨- ٩٩)

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا

عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾.

يشير قوله - تعالى - ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ... الآية﴾. (الإسراء ٨٨) إلى إعجاز القرآن وعجز الإنس والجن مجتمعين عن أن يأتوا بمثله ليقيم الحجة عليهم فلا يبقى أمامهم إلا خيار الإيمان، ورغم ذلك يكفر أكثر الناس استكباراً وتنطعاً رغم ما اشتملت عليه الآيات من دواعي الهداية ودلالتها ببيان قرآنيٍّ يشبه في وضوحه وضوح الأمثال.

ورغم عجز الكفار عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ورغم أنه تأكَّدَ لهم أنه ليس من قول البشر، إلا أنهم أصروا على كفرهم ، وبحثوا عن وسيلة تساعدهم على تجاوز حالة القصور والعجز عندهم فوجدوها في الطلب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طلبات متعنتة، يظنون استحالة تحقيقها، وحقيقة أمرهم أنهم لم تكن لديهم قابلية للإيمان ولذلك طلبوا تفجير الينابيع والأنهار وطلبوا أن تكون هناك حدائق في مكة، واستطردوا في طلباتهم حتى أنهم طلبوا أن يأتي الخالق -سبحانه وتعالى- والملائكة ليشاهدوهم وطلبوا طلبات أخرى هي من شأن الخالق وحده يلبِّيها رغم أنهم يعلمون أن الرسول بَشر تنحصر مهمته في إبلاغهم رسالة ربهم . ثم جاء بعد ذلك التفنيد لمطلبهم أن يرسل الله ملكاً رسولاً، فأخبر - تعالى - بأن الملائكة لا يمشون مطمئنين على الأرض لأنها ليست مسكنهم وأنه - سبحانه - يبعث الرسل من جنس البشر لأنهم أقدر على إفهامهم والبيان لهم.

وبهذا يكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد أدى رسالته وكفاه الله أمر الكافرين لأنه الأعلم بحال عباده؛ فمن كان صادقاً بالتعرف إلى الحق وطلب الهداية هداه الله ، وأما من أعرض وأصر على كفره فلن يهتدي وسيحشر يوم القيامة على وجهه ذليلاً أصم وأبكم وأعمى جزاء كفره وإنكاره للبعث والحياة بعد الموت، وأيضاً بسبب غفلته عن النظر والتفكير في آيات الخالق العظيمة التي يراها في السموات والأرض ورغم تذكيرهم وتحذيرهم من العذاب يوم القيامة إلا أن المستكبرين يزدادون طغياناً وكفراً وتلك من سنن الهداية والضلال.

ويأتي هذا البيان بشأن المستكبرين مقدمة لبيان حال بني إسرائيل الوارد في الآيات التالية، وإنَّ هذا الوصف ينطبق عليهم كما انطبق على فرعون المستكبر رغم البيان والآيات والمعجزات التي جاء بها موسى - عليه السلام - ، وهو الأمر الذي يشير إلى أنَّ بني إسرائيل قد ضلوا ضلالاً بعيداً وأن استكبارهم متأصل فيهم لدرجة لا يُرجى لهم معها هداية.

استكبار فرعون
وإفساد بني إسرائيل في الأرض

الآيات (١٠٠-١٠٤)

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

في الآيات بيان بشأن جبلّة البخل لدى الإنسان بشكل عام، وفي بني إسرائيل بشكل خاص وتذكير لهم بكرم ربهم ورحمته بهم، وتأييده لهم على فرعون بالبيِّنات، وأنه حين يكون الإفساد الثاني تكون عودتهم جماعات إلى بيت المقدس ويكون إفسادهم مشابهاً لإفساد فرعون الذي تجبَّر وتكبَّر، وأن نهايتهم أيضاً تكون مثل نهايته.

جهاد العبادة

الآيات (١٠٥- ١١١)

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ

سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾.

تشير الآيات إلى مشهد نزول القرآن بالحق الذي هو امتداد للحق الأصيل في ناموس الوجود وأنه أُنزل مُفَرَّقاً ليكون منهجاً عملياً للمسلمين يطبقونه في حياتهم.

ويلامس مشهدُ إيمانِ أهل الكتابِ مشاعرَ من يتلو هذه الآيات ووجدانَه بما اشتملت عليه من خشوع وبكاء وحمد وتسبيح وسجود لله، فهو مشهد معبِّر عن استقبال القلوب المؤمنة لفيض القرآن ونفحاته النورانية العارفة بربها، وإكرامه لهم بأنه زادهم خشوعاً.

ويأتي الأمر بوجوب مناجاة الخالق بذكر أسمائه الحسنى واستحضار اسم الرحمن وأن تكون صلاة المؤمنين على الشكل الذي يليق بجلاله فلا يجهر المؤمن ولا يخافت بها، وأن يبتغي بين ذلك سبيلا.

وفي ختام السورة يأتي التوجيه الرباني بوجوب الحمد لله شكراً له على وحدانيته التي تدل على عظمته وقدرته، وتوجيه بأن يكون التكبير هو ديدن المؤمن لأن في هذا وقاية لهم من الضعف والهوان، وأنه تتحصل له بذلك حالة إيمانية تزيده قرباً من ربه كما تتحقق له مناعة إيمانية فائقة تمكنه من مواجهة إفساد بني إسرائيل وعدوانهم بعزيمة وبأس شديد.

قائمة إصدارات
مؤسسة فلسطين للثقافة

سلسلة دواوين فلسطين:

التسلسل	اسم الكتاب	المؤلف
١	ديوان وطني معي	خميس لطفي
٢	ديوان عد غداً أيها الملاك	خميس لطفي
٣	ديوان إلى غرب القلب	مريم العموري
٤	ديوان جرح لا تغسله الدموع	د.كمال غنيم
٥	ديوان نزيف الذكريات	سمير عطية
٦	ديوان براءة	د. عبد الغني التميمي
٧	ديوان أحلام فراشة	عيسى عدوي
٨	ديوان على شاطئ المستحيل	عيسى عدوي
٩	ديوان خذني إلى المسجد الأقصى	د. أيمن العتوم
١٠	ديوان فوق خط التماس	خميس لطفي
١١	ديوان الظل والحرور	د. عبد الغني التميمي

سلسلة فلسطين الحضارة

١٢	فتوح فلسطين	د. أسامة الأشقر
١٣	القول المبين	محمد شراب
١٤	الصحابة على ارض فلسطين	د. أسامة أبو نحل
١٥	الاستيطان الصليبي	د. رياض شاهين

سلسلة القصص والروايات

١٦	بئر الأرواح	عدنان كنفاني
١٧	لفلسطين.. قصص شبابية واعدة	مجموعة كتاب

سلسلة الثقافة القرآنية

١٨	منهج إمامة وتمكين للمستضعفين في سورة القصص	د. محمد الخضري
١٩	منهج تأهيل الدعاة إلى الله في سورة الكهف	د. محمد الخضري

سلسلة دراسات بيت المقدس

٢٠	تقديم بيت المقدس	د. عبد الفتاح العويسي
٢١	البعد الأكاديمي والمعرفي لبيت المقدس	د. عبد الفتاح العويسي

شعر

٢٢	ديوان عمات الرسول	د. أسامة الأشقر
٢٣	شبح الأندلس	برهان الدين العبوشي

دراسات

٢٤	ألف يهودي في التاريخ الحديث	عدنان أبو عامر
٢٥	موسوعة مصادر الأدب الفلسطيني الحديث	د. محمد الجعيدي
٢٦	أدب المقاومة	د. عادل الأسطة

٢٧	فارس السيف والقلم	برهان الدين العبوشي
٢٨	معارج الإبداع	غسان كنفاني
٢٩	أشعار فتوح الشام	إبتسام صايمة
٣٠	ديوان الفرقان	د. أسامة الأشقر
٣١	الرواية السريانية للفتوحات الإسلامية	تيسير خلف

طباعة راقية ملونة

٣٢	فن التصوير الفلسطيني	عبد الله أبو راشد

قائمة إصدارات المؤسسة القادمة

سلسلة دواوين فلسطين:

- ديوان ابن زقاعة الغزي.....تحقيق عبد اللطيف أبو هاشم

سلسلة دراسات فلسطين:

- الأعمال الكاملة للدكتور الشاعر عبد الرحمن بارود
- مستقبل الإسلام للدكتور نزار ريان
- مقامات طريد الزمان الطبراني للدكتور سعيد حطيني

مُؤَسَّسَةُ فلسطين للثقافة

هاتف: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٨٠٢
فاكس: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٥٥١
ص.ب: سورية - دمشق ١٣٠٢٩

www.thaqafa.org
thaqafa@thaqafa.org